تجليات الاغتراب

في شعر طرفة بن العبد

د. عبدالله بن سليمان السعيد

- الأستاذ المساعد بكلية التربية بالخرج - جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز .
- حصل على درجة الماجستير من كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: «شعر أحمد الجندي: دراسة موضوعية وفنية».
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: «شعر بني مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم: دراسته وجمع لما لم يجمع منه وتوثيقه»
- البريد الإلكتروني: abomareen@gmail.com

الملخص

موضوع البحث: تجليات الاغتراب في شعر طرفة بن العبد.

أهداف البحث: دراسة مظاهر الاغتراب وأنواعه في شعر طرفة بن العبد.

منهج البحث: المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي.

أهم النتائج:

- مركزية مظاهر الاغتراب في شعر طرفة وسيطرتها على كثير من نماذج شعر طرفة.
- ظهرت تجليات الاغتراب في شعر طرفة بأنواعها المختلفة: المكاني، والزماني، والنفسي والاجتماعي.
- استطاع طرفة أن يقاوم مشاعر الإحباط تجاه قبيلته ومجتمعه، فصنع لنفسه مجتمعًا بديلًا يصبح به الاغتراب والانكفاء على الذات وطنًا جديدًا للشاعر بما فيه من قيم ومشاعر وتجليات.

أهم التوصيات:

يوصي البحث بالتوسع في دراسة مظاهر الاغتراب وتجلياته لدى الشعراء الجاهليين، وبالتوسع في دراسة شعر طرفة بن العبد من الوجهتين النفسية والاجتماعية؛ لوضوح أثرهما في شعره، كما يوصي بدراسة أثر هذه التجليات على الجانب الفني في شعر طرفة، وبخاصة ما يتصل بتفوقه في بعض المعاني دون بعضها الآخر، وبظهور شبكة من الصور التي تمثل بمجموعها تجليًا لمظاهر الاغتراب في شعر طرفة.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، طرفة بن العبد، المعلقات.

المقدمة

«تجليات الاغتراب في شعر طرفة بن العبد» بحث في مظاهر الاغتراب وتجلياته في شعر طرفة بن العبد، وتكمن أهميته أن الباحث طرق موضوعًا مغفلًا في شعر طرفة بن العبد الذي يعد من أبرز الشعراء الجاهليين، وتعد معلقته من أفضل قصائد الشعر العربي على امتداد عصوره وحقبه، كما تبرز أهميته في محاولته الإفادة من العلوم الاجتماعية والنفسية في دراسة عينة محددة لشاعر واحد، وبخاصة أن شعر طرفة كان يشي بمعاناته في التعامل مع مجتمعه القبلي والإنساني بعامة.

أهداف البحث:

تحديد مظاهر الاغتراب في شعر طرفة وتحديد أنواعها ومكانتها من شعره.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتركز مشكلة البحث في دراسة أثر الاغتراب في شعر طرفة ومركزيته في شعره من عدمه، والمظاهر التي عبر بها طرفه عن شعوره بالاغتراب بما يساعد على فهم تجلياته الشعرية وتفسيرها.

الدراسات السابقة:

لم أجد من خص مظاهر الاغتراب وتجلياته في شعر طرفة بدراسة مستقلة، ومما وقفت عليه من البحوث المقاربة ما يلي:

- الاغتراب في المعلقات/ ظاهرة الاغتراب في شعر المعلقات/ الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، لمي يوسف خليف، وهذه الدراسة نشرت بعنوانات مختلفة مع كل طبعة جديدة، وتتناول الاغتراب في المعلقات بعامة، ولم تتجاوزها إلى بقية شعر طرفة، ومنهجها أقرب إلى القراءة التحليلية التذوقية لنص واحد في ظل فرضية معينة مؤداها أن الاغتراب سمة جماعية تعبر عن علاقة الشاعر الجاهلي بواقعه، وهذا المنهج مختلف تمامًا عما جاء في هذه الدراسة التي اعتمدت على استقراء نصوص الشاعر كلها بحثًا عن مظاهر الاغتراب وفق مصطلح معين التزم به البحث.

- طرفة بن العبد القلق الوجودي والشقاء، للدكتورعلي شلق، وهو كتيب من القطع الصغير في نحو ستين صفحة، ومع أن العنوان يوحي بأن الدراسة ستركز على جوانب القلق الوجودي، إلا أن المؤلف لم يشر لذلك إلا لمامًا في أثناء حديثه عن شعر طرفة وعن عبقرية المعلقة في موضعين[(١)].

وهذا الموقف مختلف عما ورد في هذه الدراسة التي ركزت على تتبع مظاهر الاغتراب وتجليتها.

إجراءات البحث ومنهجه:

سلكت المنهج الوصفي المقارن في تحرير مصطلح الاغتراب، ثم المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي من خلال استقراء ديوان طرفة بن العبد وتتبع أخباره في كتب التراث للوصول إلى مسببات الاغتراب في شعر طرفة، وتجلية مظاهر الاغتراب فيه.

حدود البحث:

التزم البحث الجوانب الموضوعية المتصلة بمصطلح الاغتراب الذي اعتمده الباحث في شعر طرفة الموجود في ديوانه.

خطة الدراسة

تضمنت خطة البحث هذه المقدمة، وتمهيدًا يتضمن مدخلًا في تحرير مصطلح الاغتراب، وفي بيان مسببات الاغتراب في شعر طرفة، ثم جاءت تجليات الاغتراب في ثلاثة مباحث، تناول الأول منها الاغتراب المكاني، والثاني الاغتراب الزماني، ودرس الثالث الاغتراب الاجتماعي والنفسي، ثم الخاتمة وتشمل أهم النتائج والتوصيات، ثم فهرس المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

---

(١) انظر: طرفة بن العبد القلق الوجودي والشقاء، د.علي شلق، (ص١٨، ٤٦). والمؤلَّف أقرب إلى الترجمة العامة، حيث يبدأ بالحديث عن حياة طرفة وأسرته، ثم يقدم للمعلقة بالحديث عن شعره، ثم يثبت نصّ المعلقة، ويشرح أبياتها بيتًا بيتًا، ويعقبها بإشارات مختصرة عن عبقرية المعلقة، ثم يورد مختارات من شعره ويشرحها.

التمهيد

أولاً : مدخل

طرفة بن العبد البكري، أحد الشعراء المعروفين، يعود شعره إلى منتصف القرن السادس الميلادي، مابين عامي (٥٣٨-٥٦٤م) على وجه التقريب، وهو أحد أصحاب المعلقات، وقد عده ابن سلام في الطبقة الرابعة، ونص على أن موضعه هو ومن معه من الأوائل لولا قلة شعرهم بأيدي الرواة[١].

و تكاد تجمع الروايات أن طرفة عاش حياة قصيرة لا تتجاوز السادسة والعشرين، وأنه مات مقتولًا، ولكنها تضطرب اضطرابًا شديدًا في تصوير قصة حياته ومقتله[٢].

وعلى نحو ما ظهر الاضطراب في تناول حياة طرفة ظهر كذلك في حدود العنوان لدى عدد من الباحثين، إذ توقفت كثير من الدراسات الاجتماعية عند هذا المفهوم، وتباينت في تمييزه، وتوضيح حدوده، على أن مثل هذا البحث لا يمكن أن يمضي إلى غايته دون أن يحرر مصطلح الاغتراب ليكون قاعدة ينطلق منها الباحث إلى مكاشفة الاغتراب في شعر طرفة الذي كان مليئًا بالتعبير الإنساني المؤثر عن تجربته وحياته.

برز مفهوم الاغتراب في الدراسات الحديثة لبعض الشعراء بوصفه سمة تعبر عن خصائص يقع مجملها في دائرة التمرد والانعزال والانفصال.

وحين نعود إلى المعنى اللغوي الذي ذكرته المعاجم نجد معاني تدل في مجملها على انفصال

---

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء، للجمحي، (ص١٣٧).

(٢) في ترجمته وأخباره انظر: البيان والتبيين، للجاحظ، (٢/ ١٧٨، ١٩٥، ٢٦٨)، والحيوان، للجاحظ، (٣/ ٦٦، ٧/ ١٥٧)، والشعر والشعراء، لابن قتيبة (١٨٥-١٩٦)، وجمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، لأبي زيد القرشي، (ص٤١٩)، والعقد الفريد، لابن عبد ربه، (١/ ٦٩، ٦/ ١٠٥)، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، للأنباري (ص١٤٠-١٥٦)، والمؤتلف والمختلف، للآمدي (ص١٦٤)، ومعجم الشعراء، للمرزباني (ص٢٠٧)، والعمدة في صناعة الشعر ونقده، للقيرواني (ص١٤٥،١٤٦، ١٤٨، ١٥٨، ٦٥٣ ، ٧٩١، ١٠٨٧، ١٠٩٩)، وشرح المعلقات السبع، للزوزني (ص٧٨-٨٠)، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لابن أحمد (١/ ٣٦٤-٣٦٨)، والفاخر، للمفضل بن سلمة (ص٦٠-٦٢، ١٤٧، ١٤٨، ٢٥٣)، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادي (٢/ ٤١٥، ٤١٩-٤٢٤).

ذات مدركة عن جذورها الممتدة وسياقاتها الطبعية التي يفترض نشوؤها فيها، ففي العين: «الغربة: الاغتراب عن الوطن، وغرب فلان يغْرُبُ عنا غَرْبًا أي تنحى، فأَغْرَبْته وغرَّبته أي نحيته»[(١)]، وفي الصحاح: «الغربة: الاغتراب، تقول منه: تَغَرَّب واغْتَرَب بمعنى، فهو غريب وغُرُب»[(٢)]، وفي تهذيب اللغة: «الغرب: الذهاب والتنحي، غرب عنا يغرب غربًا، وقد أغربته إذا نحيته»[(٣)]، وفي لسان العرب: «الغَرْب: الذهاب والتنحي عن الناس، وقد غرب يغرب غربًا، وغرَّب، وأغرب، وأغربه وغربه: نحاه، والغَرْبة والغَرْب: النوى والبعد، والتغريب: النفي عن البلد، ودارهم غَرْبة نائية، وأغربته وغرَّبته إذا نحيته وأبعدته، والغربة والغرب: النزوح عن الوطن والاغتراب، ورجل غريب : ليس من القوم، والغرباء: الأباعد، ورجل غُرُب وغريب: بعيد عن وطنه، والاغتراب افتعال من الغربة»[(٤)].

وإذا أردنا أن نحلل هذه الدلالات فإننا نجد ذاتًا مدركة ذات مشاعر وحاجات تنفصل عن سياقها الاجتماعي البدهي الذي يعبر عنه بالوطن أو القوم أو الناس إلى سياقات أخرى لظروف أو أسباب خارجة عن إرادة هذه الذات ورغبتها.

وحين نتجه للمعنى الاصطلاحي فإننا نجد الفلاسفة أول من عني بتحديد هذا المصطلح، على يد هيجل Hegel الذي يعد أهم من نظَّر للاغتراب، ثم انتقل هذا المصطلح إلى الدراسات الاجتماعية، والنفسية، والأدبية. وتصور هيجل للاغتراب يشير إلى علاقة انفصال أو تنافر، تنشأ بين الإنسان وبين بنيته الاجتماعية، أو بين وضعه الفعلي وبين طبيعته الجوهرية[(٥)]، وأما كارل ماركس Karl Marx فيدور حول الجانب الثاني الذي أشار إليه هيجل، ويوظفه للجانب الاقتصادي الاجتماعي، فهو يشير إلى النموذج أو المثال الذي يعتقده أو يفترضه في الإنسان المنتج، إذ الاغتراب عنده هو اغتراب الإنسان عن ذاته

(١) العين ، مادة (غرب) .
(٢) الصحاح ، مادة (غرب) .
(٣) تهذيب اللغة ، مادة (غرب) .
(٤) لسان العرب، مادة (غرب) .
(٥) ينظر: الاغتراب، لريتشارد شاخت، ص١٥٩، وينظر: الإنسان والاغتراب، لمجاهد عبد المنعم (٢٩-٣٤).

الإنسانية الحقة أو عن طبيعته الجوهرية عند ما يسلم إرادته للآخرين مقابل أجر عمله[١]، ولا يبعد إيريك بروم Erich Fromm الفيلسوف وعالم النفس عن تعريف هيجل كثيرًا، إذ الاغتراب عنده هو «الفشل في أن يكون الإنسان النفس التي يجب أن يكون عليها»[٢].

ومع أن صفة الاغتراب تعبر عن حالة اجتماعية فإن مفهومه -كما ينقل الدكتور السيد علي شتا عن بعض علماء الاجتماع- «لم يزل أقل المفهومات تعريفًا في علم الاجتماع الحديث»[٣]؛ ولذا حاول تعريفه بأنه «عرض عام مركب من عدد من المواقف الموضوعية والذاتية، التي تظهر من أوضاع اجتماعية وفنية، يصاحبها سلب معرفة الجماعة وحريتها، بالقدر الذي تفقد معه القدرة على إنجاز الأهداف، والتنبؤ في صنع القرارات، ويجعل تكيف الشخصية والجماعية مغتربًا»[٤].

ومع أننا نكاد نفتقد وضوح الصياغة في هذا التعريف، فإنه من الممكن القول: إن الاغتراب صفة اجتماعية، تظهر في مواقف موضوعية أو وجدانية، يفقد بها المغترب ضروراته الاجتماعية التي يحتاج إليها في تحقيق فاعليته الاجتماعية، وتوافقه مع نفسه ومجتمعه.

وبهذا فإن هذا التعريف يشمل التجربة الشعورية التي تنشأ بسبب شعور المغترب بالانفصال عن الواقع المحيط به على أي شكل من الأشكال، كما يشمل اغتراب الإنسان عن وطنه متى شعر بأنه فقد جزءًا من ضروراته التي يتوافق بها مع نفسه في محيطها الجديد، أو مع هذا المجتمع الذي انتقل إليه، وعبّر عن شيء من ذلك في شعره.

ثانياً : مسببات الاغتراب في شعره

برزت مظاهر الاغتراب في الشعر الجاهلي لدى عدد من الشعراء، وكان من أبرز مظاهرها فيه شعر الطلل الذي يمثل جزءًا من تقاليد القصيدة الجاهلية على النحو الذي نراه

---

(١) الاغتراب، لريتشارد شاخت (ص١٥٩).

(٢) الاغتراب في الفلسفة المعاصرة، لمجاهد عبد المنعم (ص١٧).

(٣) التنظيم الاجتماعي وظاهرة الاغتراب، د. السيد علي شتا (ص٣٠) ، والمرجع الذي يشير إليه كما أورده في الهامش:
The concept of alienation in modern sociology social research, Kon, Loger S.1967, vol.34, p 507.

(٤) التنظيم الاجتماعي وظاهرة الاغتراب ، (ص٤١).

في المعلقات -مثلًا-، كما ظهرت -أيضًا- في تمرد بعض الشعراء على النظام الملكي كما في الحيرة ، أو على النظام الاجتماعي السائد كما في شعر الصعاليك وبعض الشعراء الذين وقفوا من مجتمعهم موقفًا معارضًا، وهي -بعد- بارزة في مداولة الهموم والمواجع، والشكوى من تطاول الليل، وتتابع الأرق، وتباعد الأحباب والوطن.

ولم يكن ذلك غريبًا على واقع الشاعر الجاهلي وحياته، إذ عاش بعض الشعراء الجاهليين حياة قائمة على النفي والاغتراب، والتشتت والضياع، والعنف والدماء، هذا إلى أن حياة الشاعر الجاهلي وما فيها من تتبع الكلأ، ومساقط الغيث تفرض لونًا من ألوان الغربة والاغتراب، أو تساعد عليه.

ومع أن الاغتراب كان سمة لا يكاد يخلو منها ديوان شاعر جاهلي فقد كانت هذه السمة عند بعض الشعراء أكثر بروزًا ووضوحًا؛ لما يتصف به هؤلاء من سمات نفسية خاصة، أو لما واجههم من أحداث كانت كفيلة بتعميق الاغتراب في نفوسهم.

ولعل من أبرز هؤلاء طرفة بن العبد الذي اتخذه بعض النقاد المحدثين أنموذجًا للقلق الوجودي(١)، وأشار آخرون إلى هذا المعنى في شعره(٢)، فما الذي كون هذا الاتجاه في شعر طرفة؟ وما العوامل التي ساعدت على بروز الاغتراب في شعره؟.

لقد حدد بعض الباحثين المعاصرين مسببات الاغتراب في ثلاثة محاور، هي: الظلم الاجتماعي الذي يسبب العزلة، ثم الانحطاط الخلقي المتجلي في تدهور نظام القيم، وثالث هذه المحاور الظلم الاقتصادي الذي يجعل إحدى طبقات المجتمع تستغل الطبقات الأخرى.

وبهذا يمكننا أن نتعرف على ثلاثة من أنواع الاغتراب هي: الاجتماعي، والأخلاقي، والاقتصادي(٣).

وهذه المحاور تكاد تجتمع في حياة طرفة، فقد نشأ على نحو ما رأينا في حياته في بيت من

---

(١) انظر: طرفة بن العبد القلق الوجودي والشقاء، د.علي شلق: (ص٤٦).

(٢) انظر: شعراء الحيرة في العصر الجاهلي، للشطي (ص ٥٠).

(٣) انظر: «فكرة الاغتراب في الفكر العربي»، خليفات، سحبان، مجلة أفكار، العدد ٢٤، أيلول ١٩٧٤م (ص٤٢).

واسطة بني بكر، ولقي من ظلم بني عمه لأمه التغلبية في نصيبها وأبنائها من إرث أبيه ما جعله يتوعدهم بقصيدته التي جاء مطلعها:

مـــا تَنْظـــرونَ بحَـــقِّ وَرْدَةَ فـــيكمُ صَـغْرَ البنـونَ ورهْـطُ وردة غيَّـبُ[1]

وبالتالي فقد وجد طرفة نفسه محرومًا من حقه الاقتصادي، وهو ما لا يمكن إهماله، وبخاصة في المجتمعات التي لا يعيش أفرادها استقرارًا ماليًّا، والمجتمع الجاهلي لم يكن عن ذلك بمنأى، فقد كان أصحابه يعيشون شظف الحياة، وصعوبة العيش؛ ولذا وجدنا طرفة يحدّث بمرارة عن ماله الذي فقده وعن حالته، فيقول:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ خَالِدٍ ولَوْ شَاءَ رَبِّي كُنت عَمْرَو بْنَ مَرْثَدِ

فَأَصْبَحْتُ ذا مَـالٍ كَثـيرٍ وعـادَنِي بَنُـــونٌ كِـــرامٌ ســـادَةٌ لِمُســـوَّدِ[2]

وكان لهذا الظلم أثره البارز في نفسه وشعره، إذ كان يحمل في نفسه شخصية حساسة قلقة ثائرة ، أضرمت في نفسه نارًا من الاستعداء، والاستهتار بالقبيلة التي ينتمي إليها ، ليجد نفسه كما ذكر في المعلقة مفردًا إفراد البعير الأجرب .

كما أنه كان ذا حساسية شديدة تجاه ما يراه من فساد منظومة القيم الخلقية، فكان من محاور شعره ذم البخل، والقعود عن النجدة، والتهالك على الأموال، كما اشتكى من إخلال مجتمعه بهذه القيم وظلمهم له ولأمه، واشتكى من غدر أصحابه ومراوغتهم.

وبالإضافة إلى ذلك فهناك مسببات نفسية كانت ظاهرة في حياة طرفة، حيث كانت الفرصة ضعيفة في تحقيق دوافعه وإشباع رغباته منذ صغره، فقد نشأ يتيمًا محرومًا من رعاية والده، عاجزًا عن الدفاع عن حق والدته في قومه[3]، كما ظهر عنده الصراع بين دوافعه

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص١١٤).

(٢) المصدر السابق (ص٥٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص١١٤)، وأول قصيدته:

ما تنظرون بحق وردة فيكم صغر البنون ورهط وردة غيب

ورغباته وبين حاجات المجتمع المحيط به التي كثيرًا ما يعبر عنها بالعاذلات أو باللائمين[١]، كما ظهر عنده الإحباط بسبب شعوره بالفشل أن يكون النفس التي يريدها داخل مجتمعه؛ فلم يستطع أن يكون غنيًّا، ولا أن يستعيد حق والدته، ولا أن يشبع حاجاته التواصلية في مجتمع أفرده إفراد البعير الأجرب[٢]، وهو ما يفسر ما ذكره ابن سلام من جراءته على هجاء قومه وهجاء غيرهم[٣].

على أن بعض الباحثين قصر إحساس طرفة بالاغتراب النفسي على الأحداث التي واجهها في حياته[٤]، ولكن هذا الأمر لا يثبت للنظر الدقيق - في رأيي-؛ لأن طرفة كان يحمل الإحساس بالتمرد والثورة في سماته وطباعه، فهو يغضب للقُبَّرة التي لم يستطع اصطيادها فينشئ فيها شعرًا[٥]، ويقف المتلمس على قوم طرفة، فيستنشدونه، فيصف الجمل بصفة من صفات النياق، فيسكت القوم كلهم، ويبرز طرفة وهو حينها صبي قائلًا: استنوق الجمل[٦].

وقد جمع إلى هذا الإحساس بالتمرد ذكاءً نادرًا، وعبقرية فذة كما يظهر من شعره،

---

(١) انظر: ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٤٥- ٤٦، ٥٠)، الأبيات التي تبدأ بقوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

والأبيات الواردة في لوم ابن عمه مالكًا، وأولها :

فما لي أراني وابن عمي مالكا متى ادن منه ينأ عني ويبعد

(٢) انظر: المصدر السابق، (ص٤٤، ٥٢، ١١٤)، وفيه قوله:

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

وقوله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وقصيدته التي أولها قوله:

ما تنظرون بحق وردة فيكم صغر البنون ورهط وردة غيب

(٣) انظر: الشعر والشعراء (ص١٨٥).

(٤) انظر: الحرية والضرورة في مأساة طرفة بن العبد، قباوة، فخر الدين وأحمد الخليل، مجلة بحوث جامعة حلب، حلب، العدد (١٦)، لعام ١٩٦٩م، وانظر -أيضًا-: الغربة في الشعر الجاهلي (ص٢٣٣).

(٥) انظر: الحيوان، للجاحظ (٣/ ٦٦).

(٦) انظر: الأغاني «ثقافة» (٢٣/ ٥٥٩-٥٦١).

فاجتمعت له أسباب الاعتداد بنفسه، والنزق على قومه، إلى ما تعرَّض له من ظلم اجتماعي مع أمه وردة، وما واجهه من متاعب مع قومه بعد ذلك، وما رآه من مظالم لبعض أفراد قبيلته.

وفي الحق أن في تمرد طرفة شبهًا كبيرًا بتمرد الصعاليك الذين فقدوا الإحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي، وتطورت هذه العصبية -كما يقول الدكتور يوسف خليف- «في نفوسهم إلى عصبية مذهبية»[1]، ولكنه تميَّز برؤيته الخاصة للحياة، فنزع إلى الاستقرار، وإلى التمتع بالملذات التي ذكرها في معلقته، ووقف لذلك موقفًا متوسطًا بين الشعراء الصعاليك وبين الشعراء القبليين، أو أولئك الذين كان شعرهم وموهبتهم في خدمة قبائلهم.

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ليوسف خليف (ص١١٠).

تجليات الاغتراب ومظاهره في شعر طرفة

أولاً : الاغتراب المكاني

لعل أول ما يمكن أن نقف عليه من مظاهر الاغتراب الاغتراب المكاني، فقد نشأ طرفة بين قومه معتزًّا بنسبه بينهم، ويبدو أنه نشأ في حالة متوسطة من حيث الدعة وخفض العيش، وأنه أسرف في اللهو والمجون إسرافًا ذهب بماله، وجعل العشيرة تتحاماه وتفرده إفراد البعير الأجرب -كما ذكر في المعلقة- .

وهنا شد طرفة عصا الترحال، وطوَّف بالآفاق، فألم بعمرو بن هند في الحيرة، ولحق باليمن، ورحل إلى الحبشة[(١)]، ولكن حنينه كان لا يزال موصولًا بوطنه الذي تركه، وقومه الذين فصل عنهم.

وفي هذا التطواف كان لابد لطرفة – كغيره من الشعراء الجاهليين – أن يقف على شيء من أطلال قومه ومرابعهم، وأن يلم برسم خولة معشوقته التي تركها في بني مالك[(٢)]، وأن يبكي أطلالها كما فعل في المعلقة وغيرها من القصائد[(٣)].

ومن هذه القصائد التي بكى فيها طرفة أطلال قومه قصيدته الميمية التي أنشدها في أثناء إلمامه بعمرو بن هند، وفي أولها يقول:

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٩٨).

(٢) نص ابن الأنباري على نسبها من قومه بني مالك في شرحه البيت الثالث من المعلقة، ونسب إلى هشام الكلبي أنها امرأة من بني كلب في شرحه البيت الأول. (انظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص ١٥٦، ١٥٩) والأرجح أن بني مالك الذين تنتسب إليهم خولة هنا ليسوا بني مالك بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة قبيلة طرفة، وإنما بنو مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، فبرقة ثهمد مذكورة في منازل بني دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم (انظر: معجم البلدان: برقة ثهمد، وتاج العروس: برق، وثهمد) كما أن طرفة ذكر خولة باسمها ثم نسبها إلى بني حنظلة في لاميته (انظر: ديوانه، ص ٩٨-١٠٠) .

(٣) عدة القصائد التي ذكر فيها طرفة الأطلال من رواية الأعلم الشنتمري ست قصائد من ثماني عشرة قصيدة، وهي القصائد (١- ٣-٤-٥-٦- ١٥)، وفي صلة الديوان خمس قصائد أخرى، وهي القصائد (٣٤-٤٠-٥٦- -٨٤- ٨٥).

أشَـــجَاكَ الرَّبْـــعُ أم قِدَمُـــهُ ... أم رَمَـــادٌ دَارِسٌ حُمَمُـــهْ (١)

كَسُـــطورِ الـــرَّقِّ رقَّشَـــهُ ... بالضُّـــحَى ، مُـــرَقِّشٌ يَشِـــمُهْ (٢)

لَعِبَـــتْ بَعْـــدِي السُّـــيولُ بِـــهِ ... وَجَـــرَى فِي رَوْنَـــقٍ رِهَمُـــهْ (٣)

فالكَثِيـــبُ مُعْشِـــبٌ أُنُـــفٌ ... فتَنَاهِيـــــهِ فَمُرْتَكَمُـــــهْ (٤)

جَعَلَتْـــهُ حَـــمَّ كَلْكَلِهَـــا ... لِرَبِيـــعٍ دِيمَـــةٌ تَثِمُـــهْ (٥)

حَابِسِـــي رَسْـــمٌ وَقَفْـــتُ بِـــهِ ... لَـــوْ أُطِيـــعُ الـــنَّفْسَ لَمْ أَرِمُـــهْ (٦)

وهذا التفصيل الذي نراه في هذه الأبيات وأمثالها يدلنا على أن الشاعر يحاول أن يستحضر الماضي، وأن يتصل بكل شيء فيه، إنه لون من التمسك بالماضي، بل إن كل شيء في هذه الأبيات يؤكد رغبته في الانفصال عن الواقع، والعودة إلى وطنه وذكرياته، وإن شئت فقل هو لون من الرفض للواقع الجديد ومحاولة الانفصال عنه، والشاعر لا يترك لنا مجالا للتفسير حين يصرح بأن انتقاله إلى هذا الواقع الجديد، كان رغمًا عنه، وأنه لو أطاع نفسه لم يترك ربوع قومه.

وحين ننتقل للمعلقة فإننا نجد طرفة يلم بأطلال خولة، فيتشوق إليها قائلًا:

لِخَوْلَـــةَ أَطْـــلالٌ ببُرْقَـــةِ ثَهْمَـــدِ ... تلـوحُ كباقي الوَشمِ في ظاهر اليَدِ (٧)

---

(١) الدارس: ما ذهب أثره، والحمم: الفحم، والمنهج الذي سيعتمده الباحث في شرح الأبيات أن يعتمد على شرح الأعلم الشنتمري للديوان، ثم ما جاء في شرح معلقة طرفة عند شراح المعلقات كالزوزني وابن الأنباري، ثم يعتمد على المعاجم فيما استشكل عليه بعد ذلك، دون الإشارة إلى المصدر كل مرة، حتى لا تثقل الحواشي بذكر المصادر .

(٢) الرق: الكتاب، رقشه: زينه، يشمه: يزينه ويرسمه.

(٣) الرونق: أول النبات وأحسنه، الرهم: المطر الخفيف.

(٤) الكثيب: الرمل المجتمع، تناهيه: ما ينتهي إليه الماء، مرتكمه : مجتمعه .

(٥) كلكلها: صدرها، وموضع التزامها وقصدها، ديمة: المطر الدائم، تثمه: تدقه وتكسره.

(٦) ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلم الشنتمري (٨٢- ٨٣)، وأرمه: أتركه.

(٧) برقة: أرض ذات حجارة وطين، ثهمد : هضبة حمراء تقع شمالاً من بلدة القاعية في نجد ،وتعرف اليوم بشرثة .

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقولُون: لا تَهْلِكْ أَسىً وتَجَلَّدِ

كَأَنّ حُدُوجَ المالكيّة غُدْوةً ... خَلايَا سَفِينٍ بالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ(١)

عَدَوْلِيَّةٌ أو مِنْ سَفِينِ ابنِ يَامِنٍ ... يَجُورُ بِهَا المَلاَّحُ طَوْراً وَيَهْتَدِي(٢)

يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا ... كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ باليَدِ(٣)

وَفِي الحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شَادِنٌ ... مُظَاهِرُ سِمْطَي لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدِ(٤)

خَذولٌ تُرَاعِي رَبْرَبًا بِخَمِيلَةٍ ... تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيرِ وَتَرْتَدِي(٥)

وتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّرًا ... تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَه نَدِي(٦)

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إلا لِثَاتِهِ ... أُسِفَّ، ولَمْ تَكْدِمْ عَلَيْهِ بِإِثْمِدِ(٧)

وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّت رِداءَهَا ... عَلَيْهِ، نَقِيُّ اللَّوْنِ لم يَتَخَدَّدِ(٨)

في هذه الأبيات يذكر الشاعر خولة وأطلالها ، ويصف المراكب التي تستقلها مع مثيلاتها . ونلحظ هنا أنه ذكر الوطن في صور متعددة، في الأطلال، وفي برقة ثهمد، وفي الحي، كما أنه نسبها إلى قومه بني مالك، ويعني ذلك أن بكاء الطلل كان استحضارًا لوطنه الذي تمثله خولة، خولة المالكية التي تسكن الحي، وتلوح أطلالها في برقة ثهمد .

---

(١) الحدوج: المراكب، الخلايا: السفن العظام، النواصف: المتسع بين كل جبل ورمل، دد: قيل اسم لواد، وقيل معناها اللهو .

(٢) عدولية: نسبها إلى قرية مشهورة بصناعة السفن ، ابن يامن: ملاح من أهل هجر.

(٣) حباب الماء: زبده وأعلاه، حيزومها: صدرها، المفايل: الذي يلعب الفيال، وهو أن يقسم التراب نصفين فيضع فيه شيئًا، ثم يقامر به فيكون في نصيب أحدهما.

(٤) أحوى: شبهه بنوع من أنواع الظباء، المرد: ما يدرك من ثمر الأراك، شادن : الظبي الصغير الذي كاد أن يستغني عن أمه، مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد: موالٍ بينهما.

(٥) الخذول : التي تركت أصحابها، الربرب: ولد البقرة، البرير: ثمر الأراك، ترتدي: تتناول.

(٦) ألمى: اللمى سواد محبب في الشفة، المنور: زهر أبيض، الدعص: الكثيب الصغير.

(٧) إياة الشمس: ضوؤها، أسف: ذُرَّ عليه، تكدم : تعض.

(٨) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٢٣-٢٧)، لم يتخدد: لم يهزل .

وبذلك فإن الوقوف على الطلل يتناول الوطن كما يتناول الحبيبة، أو هو -كما يعبر امرؤ القيس- بكاءٌ من ذكرى حبيب ومنزلِ.

على أن طرفة الذي طوَّف بالآفاق -كما سبق أن أشرنا- وجد في غربته المجردة ما أثار حنينه وألمه إلى وطنه ، يقول:

ولا غَـــرْوَ إلا جَـــارَتي وسُـــؤَالُها ... ألا هَـلْ لنـا أهْـلٌ ؟، سُـئِلْتِ كـذلِكِ

تُعَـــيِّرني طَـــوْفَ الـــبلادِ ورِحْلَـــتي ... ألا ربَّ دارٍ لي ســـوىٰ حُـــرِّ دارِكِ

وَلَـيْسَ امْـرؤٌ أَفْـنَىٰ الشَّـبَابَ مُجَـاوِرًا ... سِـــوَىٰ حَيِّـــهِ إلاَّ كَـــآخَرَ هَالِـــكِ[1]

إنه يستنكر سؤال جارته هل له أهل؟ ، ويدعو عليها بالغربة لتُسأل مثل هذا السؤال، ثم يساوى بين الغربة والهلاك .

والبيت الأخير بيت مؤثر حقًّا؛ لأنه يلخص مأساة طرفة الذي أفنى شبابه مغتربًا ومجاورًا في غير حيه، ولم يكن ذلك لو أنه وجد في قومه ما يريده لنفسه من فاعلية اجتماعية اضطرته إلى أن يفني شبابه مجاورًا سوى حيّه، ليجد نفسه كآخر هالك.

ولم يكن طرفة مستغنيًا عن قومه لو استطاع أن يجد لنفسه مكانه الذي يريده بينهم، ويلفت النظر أن طرفة كان يعيش مرحلة من الاضطراب بين حاجته للفخر بقومه وبخاصة أمام الآخرين، وبين عدم قدرته على أن يتوافق معهم، وأن يجد لنفسه المكانة التي كان يرجوها لنفسه بينهم؛ ولذا رأيناه يهجوهم حين يكون بينهم، ويمدحهم حين لا يجدهم.

وبعد هذه الأبيات يتشوق إلى وطنه، إلى نسائه الكرام اللاتي يعدنه إذ مرض، وإلى أهله الكرام، أهل الذمم والمجد:

ألا ربَّ يـــومٍ لَـــوْ ســـقِمْتُ لَعَـــادَني ... نِسَـــاءٌ كِـــرَامٌ مِـــنْ حُيَـــيّ ومالِـــكِ

ظَلِلْـتُ بِـذي الأَرْطَـى فُوَيْـقَ مُثَقَّـبٍ ... بِبِيئَـــةِ سُـــوءٍ هَالِكًـــا أو كَهَالِـــكِ[2]

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٩٥).

(٢) ذو الأرطى: وموضع يكثر فيه شجر الأرطى ، مثقب: منزل.

تـــردُّ علـــيَّ الـــرِّيحُ ثَـــوْبِيَ قَاعِـــدًا ... إلى صَـــــــدَفِيٍّ كالحَنِيَّـــــــةِ بَارِكِ[1]

رأيـــت سُـــعُودًا مـــن شُـــعُوبٍ كَثـــيرةٍ ... فلـــم تـــرَ عَيْـــني مثـــل سَـــعْدِ بْـــنِ مالِـــكِ

أَبَـــــرَّ وأَوْفَى ذِمَّـــــةً يعْقِـــــدونَهَا ... وخَيْـــرًا إذا سَـــاوَى الـــذُّرا بالحَـــوَارِكِ[2]

وأنـــمَى إلى مَجْـــدٍ تليـــدٍ وسُـــورَةٍ ... تكـــون تُـــراثًا عنـــد حَـــيٍّ لهالـــك[3]

أبي أنْـــزَلَ الجبَّـــارَ عامِـــلُ رمحِـــهِ ... عن السُّرْج حتَّى خَرَّ بين السَنَابكِ[4]

إن شوقه إلى وطنه يدعوه إلى هذه الذكريات، ذكريات مرضه، ونساء حيِّه، ويدعوه إلى أن ينزع نفسه شاهدًا على قومه، فيتلذذ بذكر مآثرهم ومناقبهم، تمامًا كما يتلذذ بذكر خولة وصواحبها.

على أن صلة طرفة بوطنه لم تقتصر على الأطلال والذكريات فحسب، وإنما رأيناه يتخذ طريقًا آخر يستحضر به خيال نساء قومه، والأبيات التالية تعرض أنموذجًا رائعًا لحضور سلمى التي تمثل جزءًا من وطن طرفة الذي يتمناه ويتشوق إليه، يقول:

سَمَا لَكَ من سَلْمَى خَيَالٌ ودُونَهَا ... سَـــوَادُ كثيـــبٍ عَرْضُـــهُ فَأَمَايِلُـــه[5]

فذو النِّيرِ فالأعلامُ من جانبِ الحمَى ... وقُفٌّ كظَهْرِ التُّرْسِ تَجْرِي أَسَـــاجِلَه[6]

وَأَنَّى اهتَـدَتْ سَـلْمَى وَسَـائِلَ بَيْنَنَـا ... بشَاشَـةَ حُـبٍّ باشرَ القَلْـبَ داخِلُـهْ[7]

وكَـمْ دَون سَـلْمَى مِـنْ عَـدُوٍّ وَبَلْـدَةٍ ... يحَـارُ بِهَـا الهَـادِي الخَفِيـفُ ذَلاذِلُـهْ[8]

---

(١) صدفي: بعير منسوب إلى صدف، وهي حي من حضرموت، وقيل: هو من كندة، الحنية: القوس.

(٢) الذرا: أعلى السنام، الحوارك: جمع حارك، والحارك: مقدم السنام.

(٣) السورة: المنزلة من الشرف.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٩٤-٩٦)، عامل الرمح: أعلاه، والسنابك: مقاديم الحوافر.

(٥) السواد: السواد من كل شيء شخصه وما يبدو منه ، الكثيب: مجتمع الرمل، أمايله: الكثيب المستطيل من الرمل.

(٦) الأعلام: الجبال، القف: ما صلب من الأرض، أساجله: مجاري الماء فيه.

(٧) وسائل حب: المنزلة اللطيفة منه.

(٨) الخفيف ذلاذله : المشمر المسرع.

يَظَــلُّ بِهَــا عَيْــرُ الفَــلاَةِ كَأَنَّــهُ رَقِيــبٌ يُخَــافِي شَخْصَــهُ وَيُضَــائِلُهْ[1]

وَمَا خِلْتُ سَلْمَى قَبْلَهَا ذَاتَ رُجْلَةٍ إذا قَسْـوَرِيُّ اللَّيْـلِ جِيبَـتْ سَـرَابِلُهْ[2]

وبارز أن فكرة البعد عن الوطن والمكان تسيطر على الأبيات وتوجه فكرتها، فطرفة يعدد الحوائل بينه وبين سلمى، أو بينه وبين موطنه -إن شئت-، في صورة من الألم والشكوى، فهي حوائل كثيرة متعددة من جهة، وهي حوائل خطرة مخيفة، يضل بها الدليل، ويتعرض إلى خطر الأعداء، والانخداع بالسراب من جهة أخرى.

ولكنه بالرغم من ذلك يجد في خيال سلمى صورة تصله بموطنه الذي لقيها فيه، وترك فيه ذكرياته مغتربًا عنه إلى موطن آخر، وبلدة أخرى .

لقد تنقل طرفة عن وطنه وانتقل عنه رجاء أن يجد لنفسه مكانًا تتوافق فيه مع ذاتها في ظل هذه المجتمعات، أو أن يجد فيها من المال أو الوجاهة الاجتماعية ما يساعده على التوافق مع مجتمعه الأصلي، لكنه لم يجد فيها ما يصبو إليه ليجد نفسه غريب الجسد والروح نائيًا مفردا عن وطنه ومراتع صباه ولهوه.

(١) العير: الدابة.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص١٢٧-١٢٨)، وقسوري الليل: شدته وظلمته، جيبت سرابله: لُبِست قمصه وثيابه.

ثانياً : الاغتراب الزماني

وعلى نحو ما ظهر الاغتراب المكاني في شعر طرفة ظهر الاغتراب الزماني فيه أيضًا، ونقصد به هنا تلك القصائد التي استحضر فيها طرفة ذكرياته على وجه التشوق إلى زمن ماض ترتبط به نفسه، كما نقصد به تلك القصائد التي حبرها طرفة مادحًا جيلًا سابقًا عليه، ومدعيًا على جيله النقص والخذلان.

لقد كان من معالم الاغتراب في شعر طرفة الارتداد الزمني أو التخيلي من خلال وقوفه على الأطلال، وتناوله الخيال، إذ إن وقوفه على الأطلال وإن كان يمثل لونًا من الاغتراب المكاني من جهة الشوق للمنزل[١] فإنه يمثل -أيضًا- انعزالًا عن الواقع المعاصر للشاعر إلى واقع تخيلي لزمن ماض يستحضره الشاعر في ذاكرته، ويحاول أن يعايشه بخياله وروحه؛ لأنه يرى فيه توافقه الذي يحقق به تكيفه الاجتماعي ورضاه عن نفسه ومجتمعه .

وها هو طرفة يقف على أطلال خولة، فيدعو لها بالسقيا، يقول :

لِخَولَـةَ بالأجْـزَاعِ مِـنْ إضَـمٍ طَلَـلْ ... وبالسَّـفْحِ مِـنْ قَـوٍّ مُقَـامٌ ومُحْتَمَـلْ[٢]

تُرَبِّعُـــهُ، مِرْباعُهـــا ومِصِـــيفُها ... مِيَاهٌ من الأشْرافِ يُرْمَى بها الحَجَلْ[٣]

فـلا زال غَيْـثٌ مِـنْ رَبِيـعٍ وصَـيِّفٍ ... على دارِها حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ لَهُ زَجَلْ[٤]

مَرَتْـهُ الجَنُـوبُ ثُمَّ هَبَّـتْ لَـهُ الصَّـبَا ... إذا مَـسَّ منها مَسْـكِنًا عُـدْمُلًا نَـزَلْ[٥]

كَـأَنَّ الخـلايا فيـه ضَـلَّتْ رِباعُهـا ... وَعُـوذًا إذا مـا هَـزَّهُ رَعْـدُهُ احْتَفَـلْ[٦]

---

(١) انظر: غربته المكانية.

(٢) الأجزاع: منعطف الوادي، والمحتمل: الارتحال .

(٣) تربعه: تتخذه ربيعًا، الأشراف: الأماكن المرتفعة، والحجل: من الطير تسكن الجبال والأشراف وترد مياهها .

(٤) الزجل: الرعد، والمطر أغزر ما يكون إذا صحبه الرعد .

(٥) مرته: مسحته كمسح الضرع، والمطر إذا مسته الجنوب والصبا يكون أغزر، والعُدْمل: القديم .

(٦) الخلايا: الأينق، والرباع: ما نتج في الربيع، والعوذ: حديثات النتاج، وخصها لأنها تكون أشد ولها على أولادها، واحتفل: كثر مطره .

فالشاعر هنا يتشوق إلى المرابع والعرصات التي لقي فيها خولة، ويتشوق إليها وإلى أيامها حتى لا يجد في نفسه حيلة إلا أن يدعو لها بالمطر والربيع؛ لما اكتنزته من ذكرياته التي فقدها، وصار قصاراه أن يبكي هذه العرصات التي تذكره بأيامه السالفة معها:

مَتَى تَرَ يَوْمًا عَرْصَةً مِنْ دِيَارِهَا وَلَوْ فَرْطَ حَوْلَ تَسْجُمِ العَيْنُ أَوْ تُهِلْ[1]

وفي الحق أن البكاء على الطلل في الشعر الجاهلي بصفةٍ عامة هو نزوع من النفس البشرية إلى الماضي، ولون من ألوان الحنين إليه، وهي سمة يشترك فيها البشر. إنه أقرب ما يكون إلى موقفنا حين نقف على أطلالنا المعاصرة، منزلٍ قضينا فيه أيام الصبا، أو مدرسة عرفنا فيها عمر الفتوة والشباب.

ولكنه -إلى ذلك كله- صورة من صور الاغتراب عن الواقع المعاصر؛ لأنه تفضيل للماضي عليه من جهة، ومحاولة للتمسك بأجزاء الذكريات واستحضارها بديلًا عن اللحظة المعاصرة من جهة أخرى.

ومن النماذج التي تمثل ارتباط الأطلال بإحساس طرفة العميق بالاغتراب تجاه حركة الزمن الأبيات التالية:

ذَكَرَ الرَبَابَ ، وذِكْرُهَا سُقْمُ فَصَبَا، وليس لمن صَبَا حِلْمُ

وإذا ألَمَّ خَيَالُهَا طُرِفَتْ عَيْنِي، فَمَاءُ شُؤُونِهَا سَجْمُ

وَأَرَى لَهَا دَارًا بَأَغْدِرَةِ السِّـ ـيدَانِ لَمْ يَدْرُسْ لَهَا رَسْمُ

إلاَّ رَمَاداً هَامِدًا دَفَعَتْ عَنْهُ الرِّيَاحَ خَوالِدٌ سُحْمُ[2]

وَتَقُولُ عَاذِلَتِي وَلَيْسَ لَهَا بِغَدٍ، وَلاَ مَا بَعْدَهُ، عِلْمُ:

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٩٨-١٠٠)، والعرصة: المنزل الخالي من البناء، وفرط حول: بعد حول.

(٢) إلا رمادًا: إلا هنا بمعنى الواو، أو بمعنى الاستثناء فتكون الرياح دفعت عنه ثم ذهبت به الرياح، خوالد: الأثافي. سُحْمُ: لون يضرب إلى السواد.

إن الثَّـــراءَ هُـــوَ الخُلُـــو ... دُ ، وإنَّ المَرْءَ يُكْرِبُ يومَه العُدَمُ

ولَـــئِنْ بَنَيْـــتِ لي المشـــقَّرَ في ... هَضْـــبٍ تُقَصِّـــر دُونَـــهُ العُصُـــمُ[1]

لَتُنَقِّـــبنْ عـــنِّي المنِيَّـــةُ إ ... نَّ اللهَ لـــيسَ كَحُكْمِـــهِ حُكْـــمُ

لم تَعْتَـــذِرْ مِنْهَـــا مَـــدَافِعُ ذي ... ضَـــالٍ ولا عُقَـــبٌ ولا الـــزُّخْمُ[2]

يبدأ طرفة الأبيات بالغزل وذكر الطيف، ثم ينتقل إلى ذكر الطلل، ثم إلى الحديث عن الفناء، وثبات الموت، ثم تعود الأبيات إلى ذكر الطلل.

وبالإضافة إلى ما في الأبيات من النزوع إلى الماضي والتمسك به واستحضاره بديلًا عن اللحظة المعاصرة فإننا نلمس في الأبيات شعورًا مريرًا بالأسى لدروس تلك الأيام، وبقاء رسومها شاهدة عليها، وكأنه يمثل بها حياته التي لن يتبقى منها إلا الذكريات، ولذا فنحن نراه يعقب هذه الأبيات مباشرة بالحديث عن الفناء، وعن حركة الزمن التي ستمضي به كما مضت بذكرياته وأحبابه السابقين.

ومن البارز أن الأبيات تبدأ بالانعزال عن واقع الشاعر، و أن هذا الاستحضار التخيلي جاء برمًا من الشاعر بواقعه المؤلم، وإحساسًا بالغربة الزمنية، ولذا بدأ طرفة الأبيات بقوله: «ذكر الرباب، وذكرها سقم»، وقد جاء ذكر الأطلال بعد ذلك ليعمق هذا الانعزال، إذ لم يكن الطلل هنا حاديًا للشاعر، يذكِّره الأحباب الراحلين، وإنما جاء في سياق ذكريات زمنية، ذكر بها الشاعر الحبيبة، وجعل يستحضر صورتها وآثارها، وبعبارة أخرى فإن الحديث عن الطلل هنا جاء في إطارٍ زمنيٍّ تتحرك به صورة الحبيبة وخيالها نحو الموت والفناء.

ولعل في الأبيات الأخيرة ما يؤكد شيئاً مما نذهب إليه، فعاذلته تحاوره في كربته تجاه الفناء، وتحاول أن تقدم له تفسيرًا جديدًا للخلود، وأن تهوِّن من كربته فتربطها بالعدم، ولكنه

---

(١) المشقر: قصر معروف بالبحرين، الهَضْب: الجبل، العصم: الوعول .

(٢) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص١٨١-١٨٢)، ولم تعتذر: لم تدرس، والمدافع: الماء يدفع إلى الأودية، وذي ضال، وعقب والزخم: مواضع .

يواجهها بمأساته «ولئن بنيت لي المشقر ... لتنقبنْ عني المنية».

وأما البيت الأخير ففيه دلالة واضحة على صلة الأطلال في هذه القصيدة باغترابه الزماني بمعناه العام، إذ يأتي في سياق الحديث عن تحقق الموت، وأن عاذلته لو بنت له المشقر لأدركه الموت، وكأنه يزاوج بين هذه الشواهد والمشقر، وأنه لو ملكه لأتته المنية، وبقي المشقر شاهدًا عليه شهادة هذه الأطلال على أصحابها.

وبذلك فإن نزوع الشاعر إلى ذكر المرأة، والطلل، ثم حديثه عن تحقق الفناء، ثم عودته للحديث عن الطلل إنما يأتي في سياق واحد يمثل به الشاعر غربته عن واقعه، وإحساسه الحاد بحركة الزمن التي تنتهي به إلى الموت والفناء.

لقد كان طرفة في حديثه عن الأطلال بعامة يمزج بين ذكرياته وهلعه من حركة الزمن، وكانت صورة الأطلال تركز على إحساسه العميق بالرحيل.

على أن الاغتراب الزماني قد يأتي مباشرة في شعر طرفة حين يلتفت عن تمثيل اغترابه من خلال الأطلال، ويصرح بها على النحو الذي نجده في قوله:

أَرِقْتُ لَهَمٍّ أَسْهَرَتْنِي طَوَارِقُهْ ... وسَاعدنِي دَمْعِي فَفَاضَتْ سَوَابِقُهْ

وَبِتُّ أُرَاعِي النَّجْمَ لا أَطْعَمُ الكَرَى ... كَأَنِّي أَسِيرٌ طَائِرُ القَلْبِ خَافِقُهْ

يُعَالِجُ أَغْلالَ الحَدِيدِ مُكَبَّلاً ... وَقَدْ عُدْنَ بِيضًا كَالثَّغَامِ مَفَارِقُهْ[1]

وَلَمْ أَبْكِ طَيْفًا زَارَ وَهْنًا خَيَالُهُ ... وَلا شَادِنًا فِي الخِدْرِ كُنْتُ أُعَانِقُهْ

وَلا شَاقَنِي رَبْعٌ خَلا مِنْ أَنِيسِهِ ... فَأَضْحَتْ بِهِ آرامُهُ وزَقَازِقُهْ

وَلا خِلْتُ أَضْغَاثًا فَبِتُّ مُسَهَّدًا ... لأَنَّ الفَتَى مَا عَاشَ فَاللهُ رَازِقُهْ

وَلَكِنَّ دَهْرًا ضَاقَ بَعْدَ اتسَاعِهِ ... وَجَاءَتْ أُمُورٌ وَسَّعَتْهَا مَضَايِقُهْ

(١) الثغام: شجر أبيض الثمر والزهر ،وإذا يبس اشتد بياضه.

مَضَى سَلَفٌ أَهْلُ الحِجَا مِنْهُ والتُّقَى وَلا خَيْرَ فِي دَهْرٍ تَوَلَّتْ غَرَانِقُهْ[1]

فَلَمْ يَبْقَ إلا شَامِتٌ بِمُصِيبَةٍ وَذُو حَسَدٍ مَا تَسْتَقِيمُ طَرَائِقُهْ

عَدُوٌّ، صَدِيقٌ، عَابِسٌ، مُتَبَسِّمٌ يُعَامِلُنِي بِالمُكْرِ حِينَ أُوَافِقُهْ[2]

والقصيدة كلها تجري على هذا النمط من ذم أهل زمنه في أخلاقهم، وعاداتهم، ومعاملاتهم، والترحم على سابقيهم أهل الحجا والتقى، هي بذلك تعبير عن إحساس طرفة بالغربة الزمنية، وتشوقه إلى أهل الزمن السابق.

وبذلك فإن الغربة الزمانية لدى طرفة تتمثل في تشوقه للماضي على وجه التخوف من المستقبل وحركة الزمن تارة، وعلى وجه الشكوى من أخلاق معاصريه، وما آلت إليه أخلاقهم، وعاداتهم تارة أخرى.

(١) الغرانق: الشباب البيض الوسيمون.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص١٧٢-١٧٣).

ثالثاً : الاغتراب الاجتماعي والنفسي

ولم يقتصر الاغتراب في شعر طرفة على شعوره بالحاجة إلى تحقيق تكيفه مع مجتمع فقده زمانًا أو مكانًا، وإنما تجاوزه إلى شعوره بالانفصال عن واقعه المحيط به داخل مجتمعه الأصلي، حيث ظهر الاغتراب الاجتماعي و النفسي في نماذج متعددة من شعره الذي بين أيدينا.

نشأ طرفة -كما أشرنا قبل- يتيمًا في حسب من قومه، وعاش حياة متقلبة بين الجدة تارة، وبين العُدم تارة أخرى، فقد منعه أعمامه حقًّا لأمه وردة، وعانى معهم حياة العدم أحيانًا[1]، ووجد نفسه معدمًا بعد أن أنفق ماله أحيانًا أخرى.

وقد كان لهذه الأحداث أثر بارز في نفسه، إذ أحس بمرارة الظلم في فترة باكرة من حياته، وجعل يعاتب أعمامه على ظلمهم له ولأمه بقوله :

مَـا تَنْظُـرونَ بِحَـقِّ وَرْدَةَ فِـيكمُ ... صَـغُرَ البنـونَ ورهْـطُ وَرْدَةَ غيَّـبُ

قَـدْ يبْعـثُ الأمْـرَ العَظِـيمَ صَـغِيرُه ... حـتَّى تظـلُّ لـه الـدِّماءُ تصـبَّبُ

والظُّلْـمُ فَـرَّقَ بـيْنَ حَيَـيَّ وائِـلٍ ... بَكْـرٌ تُسَـاقِيهَا المَنَـايَا تَغْلِـبُ

قَـدْ يُـورِدُ الظُّلْـمُ المبَـيَّنُ آجِنًـا ... مِلحًـا يُخَـالَطُ بِالـذُّعَافِ ويُقْشَـبُ[2]

ويبدو أن نداء طرفة لم يلق استجابة من قومه، فحفر في نفسه أخاديد من الألم والغضب، لم تلبث أن تحوَّلت إلى لون من ألوان التمرد على قبيلته، ورفض ضروراتها، وعدم الانصهار في الروح الجماعية لها، ومن هنا فإن قبيلته لم تكن فخورة به على النحو الذي نجده في القبائل الأخرى، إذ لم يكن طرفة ذاك الشاعر الذي تَذوب شخصيته في قبيلته مدافعًا أو هاجيًا أو مفتخرًا.

---

(١) يقول طرفة مفتخرًا بقومه:

تذكرو ن إ ذ نقاتلكم ... لا يضر عادمًا عدمه

والبيت -كما يظهر- اعتراف بالعدم على قومه. انظر: ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٨٤).

(٢) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص١١٤).

لقد هجا طرفة -مثلًا- ، لكن هجاءه لم يكن يمثل مشاعر القبيلة أو مواقفها، وإنما كان يمثل نفسه الثائرة التي تحس باغترابها تجاه ذاتها ومجتمعها، بل إنه بدأ حياته يتهدد أعمامه ويتوعدهم في قصيدته السالفة، وهجا زوج أخته عبد عمرو بن بشر[(١)]، ولم يخل بقية شعره من ذم للأصحاب، أو لبعض أبناء عمه على النحو الذي نراه في المعلقة -مثلًا- .

وفي الحق أن اعتداد طرفة بنفسه ونسبه، وإحساسه بالظلم داخل قبيلته وخارجها كوَّن في نفسه روحًا متمردًا ثائرًا، اكتوى هو بناره، واكتوى مجتمعه بشيء منه -أيضًا- ، وظهر أثر ذلك في شعره وحياته.

ويبرز هذا الروح المتمرد في هجائه الذي كان صورة من ثورته على مجتمعه، بما فيه من تقاليد ونظم، وهو في ذلك لا يبالي أن يجابه عمرو بن هند وأخاه قابوس على بأسهما ونفوذهما بهذه الأبيات الثائرة:

لَيْتَ لنا مكانَ الملكِ عمرٍو ... رَغُوثًا حولَ قبَّتِنا تخورُ[(٢)]

من الزَّمِرَات أسبلَ قادماهَا ... وضرتها مركَّنةٌ درورُ[(٣)]

أما سبب ثورته فيبرزه قائلًا:

قسَمْتَ الدَّهْر في زمَنٍ رخيٍّ ... كذاك الحُكْمُ يَقْصِدُ أو يجُورُ

لنَا يَومٌ ، وللكَرَوان يَومٌ ... تَطِيرُ البَائِسَاتُ وَلاَ نطِيرُ

فأمَّا يَومُهُن فيَومُ نَحْسٍ ... تطاردهنَّ بالحَدَبِ الصُّقورُ[(٤)]

---

(١) انظر : ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص١٠٦-١٠٧).

(٢) كذا رواية الديوان، ورواية الشعر والشعراء. انظر: ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص١٠٨)، والشعر والشعراء (ص١٨٦)، وموافقة الوزن الخليلي (فليت لنا ...). والرغوث: النعجة.

(٣) الزمرات: قليلات الصوف، القادمان: الخلفان اللذان في الأمام، ولا تكون إلا للناقة، وهي هنا على وجه الاستعارة، والضرة: لحم الضرع، المركنة: المجتمعة، الدرور: كثيرة الدر.

(٤) الحدب: ما ارتفع من الأرض في غلظ.

وأمَّـــا يَوْمُنَـــا فنَظَـــلُّ رَكْبـــاً وُقُوفًـــا مَـــا نَحُـــلُّ وَمَـــا نَسِـــيرُ[١]

إن هذه النفس الثائرة التي نلمسها في هذه الأبيات تمثل إحساس طرفة بموقفه الفردي، بحقه ألا يظل ركبًا ينتظر إذن الأمير، كما تمثل موقفه الأخلاقي بضرورة نفي الظلم، والاعتدال إلى حكم لا يقصد أو يجور، وهما كما ذكرنا قبل أهم أسباب الشعور بالاغتراب وعدم التوافق مع المجتمع[٢].

لكن هذا الموقف لم يكن متسقًا مع النظام السائد آنذاك، إذ كانت الأنظمة الجماعية -قبلية كانت أم نظم إمارة وملك- راسخة في المجتمع الجاهلي، وكان القادة وأصحاب النفوذ حريصين على تماسك أفراد القبيلة، وترسيخ قيمها، وتحقيق مصالحها المادية والمعنوية، وبدهي ألا يتم ذلك إلا بإقدام الفرد على نكران ذاته، وإخضاع إرادته لإرادة القبيلة، تلك التي يصنعها أصحاب النفوذ أنفسهم.

ونتيجة لذلك كله وجد طرفة نفسه في صراع غير متكافئ مع أصحاب السلطة والمتنفذين فيها، فانقلب على نفسه، واتخذ لها مذهبًا خاصًّا في الحياة لخصه بقوله:

فلَولا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ حَاجةِ الفَتَى وجِدِّك لم أحْفَلْ متَى قَامَ عُوَّدي

فَمِنْهُنَّ سَبْقي العَاذِلاتِ بشَرْبَةٍ كُمَيتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ[٣]

وَكَرِّي إذَا نَادَى المُضَافُ مُحَنَّبًا كَسِيدِ الغضا، نَبَّهْتَهُ، المتورِّدِ[٤]

وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجنُ مُعْجِبٌ بَبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ[٥]

حصر طرفة مذهبه في الحياة بثلاث لذات آمن بها، وجعلها محور حياته، أولها شرب

(١) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص ١٠٨-١١٠).

(٢) انظر: مسببات الاغتراب من هذا البحث.

(٣) كميت: تضرب إلى السواد.

(٤) المضاف: المدرك الذي أصابه العدو، المحنب: الفرس في يديه انحناء، وهو مما يمدح به، السيد : الذئب، المتورد: طالب الورد.

(٥) الدجن: إلباس الغيم للسماء، البهكنة: حسنة الخَلْق، الطراف: البيت.

الخمر، وثانيها نجدة الملهوف، وأما الثالثة فتوفره على المرأة.

وواضح أن هذه الثلاث تمثل شيئًا من صِراعه مع المجتمع والقبيلة. إنه يتوفر على متع حسية، أو يصنع لنفسه مجدًا فرديًّا منفصلًا عن أمجاد القبيلة بنجدة الملهوف والدفاع عن المظلوم .

ولست أميل هنا إلى أن طرفة كان عاجزًا عن حسم قضيته، أو تأكيد موقفه منها، وأنه كان حائرًا بين الصيغة الاجتماعية التي يرتضيها لنفسه والصيغة الاجتماعية التي يفرضها عليه قومه، وأنه كان يعاني من صور الانقسام على الذات بين الرغبة للرضوخ لمتعته الخاصة وبين كسب رضا الجماعة عنها[(١)]، فقد حسم طرفة موقفه، وأعلنه صريحًا لا مواربة فيه، واتخذ لنفسه منهجًا مغايرًا لمجتمعه، استقاه من نفس نزِقة متمردة، ومن روح ثائر صلب، لا يكاد يعرف التردد والضعف.

حقًّا لقد جمع طرفة بين الفروسية والخمر والمرأة، ولكن الفروسية التي يفخر بها طرفة فروسية فردية يغيث بها المضاف الذي أحاط به العدو، وهذه لا تستلزم حرصه على رضا القبيلة، أو تحقيق ذاته من خلالها، إذ لم تكن شخصية طرفة ترضخ لشيء، فقد ثار على الأمير وعلى أخيه وعلى ابن عمه وعلى قومه، لقد هجا طرفة عمرو بن هند وهجا قبيلته وبعض بني عمه، واتخذ لنفسه منهجًا يسخط هؤلاء وهؤلاء، ووقف يفخر بهذا الموقف في السياق الذي يفخر به في فروسيته.

وإذن فنحن أمام موقف اجتماعي ونفسي عميق، صنع منه صاحبه فلسفة ارتضاها لنفسه وطبقها في حياته، وفخر بها في شعره، ولسنا أمام شخصية مترددة بين الرضوخ لمتعتها الخاصة وبين كسب رضا الجماعة عنها.

وإذ لم يجد طرفة ما كان يرجوه لنفسه بين قومه، فقد أحس بغربته بينهم، وانكفأ على نفسه، وبدأ يتردد على الحوانيت مع بعض أصحابه حتى شهر ذلك عنه، وزاد من جفوة قومه:

ومَا زالَ شُرْبِي الرَّاحَ حتَّى أشرَّني صَدِيقي، وحتَّى سَاءَنِي بَعْضُ ذَلِكِ[(٢)]

---

(١) ورد هذا الحكم لدى مي خليف، انظر: الاغتراب في المعلقات، مي يوسف خليف (ص٦٣).

(٢) أشرني: أشهرني وأذاع خبري.

وحـتَّى يَقُـولَ الأقْرَبُـون نَصَـاحَةً ذرِ الجهلَ واصْرِمْ حبْلَهَا من حِبَالكِ[1]

ولا زال طرفة في مثل هذه الحال حتى توسعت الجفوة بينه وبين قومه، وبخاصة بعد أن أنفق طريفه ومتلده، فاجتمع عليه نفور الناس منه لمسلكه الأخلاقي، ونفورهم منه لفقره وذهاب ما في يديه :

مـتَى تَأتِـنِي أصـبَحْكَ كأسًـا رويَّـةً وإن كنْتَ عَنْها ذا غِنىً فَاغْنَ وَازْدَدِ[2]

وإن يلْتَـقِ الحَـيُّ الجمِيـعُ تُلاقِـنِي إلى ذِرْوَة البَيْـتِ الكَـرِيمِ المُصَـمَّدِ[3]

نَـدامايَ بـيضٌ كـالنُّجوم وقَيْنَـةٌ تَـروحُ عَلَيْنـا بـيْنَ بُـرْدٍ ومُجْسَـدِ[4]

رَحِيبٌ قِطابُ الجَيْبِ منْها ، رَفِيقَةٌ بجَـسِّ النَّـدامَى، بضَّـة المتجـرَّدِ[5]

إذا نحن قلنا: أسمعينا، انْبَرَتْ لنا علـى رِسْـلِها مَطْروفـةً لم تشـدَّدِ[6]

ومـا زال تشـرابي الخمـور، ولـذَّتي وبيعـي ، وإنفـاقي طريفـي ومُتلـدي[7]

إلى أن تَحَـامَتْنِي العشـيرةُ كلُّهـا وأُفْـرِدْتُ إفْـرَادَ البَعِـيرِ الْمُعَبَّـدِ[8]

والصورة في البيت الأخير صورة جميلةٌ حقًّا، وهي تصوِّر الحالة التي انتهى إليها طرفة مع قومه، حين أيسوا من صلاحه، فأفردوه إفراد البعير الأجرب حتى لا يتأثرون أو يتأثر أبناؤهم بمنهجه.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص١٧٧)، واصرم: اقطع .

(٢) أصبحك: أسقيك صبوحًا، وهو شرب الغداة، الكأس: إناء الخمر، روية : مُرْوية، فاغن وازدد: اغن بما عندك ، وازدد ما عندي.

(٣) الذروة: رأس كل شيء، المصمد : الذي صمد إليه ويقصد.

(٤) البرد: الثوب الأبيض أو الموشى، المجسد: الثوب المصبوغ .

(٥) قطاب الجيب: مجتمعه، البضة: الناعمة اللينة.

(٦) رسلها: برفق وتمهل، مطروفة: فاترة.

(٧) الطريف: الجديد المستحدث ، والمتلد: القديم.

(٨) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٤٢-٤٤)، والمعبد: المصبوغ بالقطران.

والأبيات إلى ذلك كله تصور منهج طرفة المتفرد الذي يمزج معاقرة اللذة بالفروسية، ويجمع حسَّ التبذل والانحطاط إلى المثالية والسمو.

وهذا المنهج المتفرد كان جزءًا من إحساس طرفة بشقائه وتوحده، وحاجته إلى تجاوز محنته وغربته بالانغماس في المتع الحسية تارة، والسمو فوق نفسه والآخرين بالفروسية والمثالية تارة أخرى[(١)].

حقًّا لقد انغمس طرفة في ملذاته بلا حساب -كما ذكر في معلقته-، وأقدم على الموت إقدامًا بلا حساب -كما ذكر في معلقته أيضًا-، ولكنه لم يفعل ذلك طيشًا ولا استهانة، ولا اندفاعًا خاليًا من النظر في العواقب، ولا فعله ضعفًا في نفسه، ولم يكن بالرجل المخبب المخدوع في ذلك كله، ولا بالرجل الضعيف الذي يرضخ لمتعه الحسية تارة، ولكسب رضا الجماعة تارة، بل كان يحمل فلسفة واضحة في موقفه من نفسه ومجتمعه، وفي موقف نفسه من الحياة، وبعبارة أخرى كان يصدر عن حسٍّ فلسفيٍّ تفرد به عن مجتمع قبيلته، بل وعن بقية شعراء عصره.

ويبرز هذا الاتجاه في شعره حين نراه يتخذ من الموت وحتمية الفناء ما يفسر به موقفه من مجتمعه والحياة ، يقول:

ألا أيُّهَذا الزَّاجِري أحضرُ الوَغَى ... وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أنتَ مُخْلِدي؟

فإن كنْتَ لا تستَطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي ... فدَعْني أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

ويعدد طرفة متعه التي ذكرناها آنفًا ، ثم يقول:

فذرني أروِّي هَامَتي في حَيَاتِهَا ... مخَافَةَ شُرْبٍ في الحَيَاةِ مُصَرَّدِ[(٢)]

كريمٌ يروِّي نفسَه من حَياتِهِ ... ستَعْلَمُ، إن مُتْنَا،صَدَىٰ أيُّنا الصَّدي[(٣)]

---

(١) حول التسامي بالمشاعر انظر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي أصوله وقضاياه، د.سعد أبو الرضا (ص٣٦).

(٢) المصرد: الذي يقطع قبل الري.

(٣) صدى أينا: الصدى هنا جثمان الرجل، الصدي: العطشان.

أَرَى قَـبْرَ نَحَّـامٍ بَخِيـلٍ بِمَالِـهِ ... كَقَبرِ غَوِيٍّ فِي البَطَالَةِ مُفْسِدِ[1]

تَـرَى جُثْـوَتَيْنِ مِـنْ تُـرابٍ عَلَيْهِمـا ... صَفَائِحُ صُمٌّ مِن صَفِيحٍ مُنَضَّدِ[2]

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي ... عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ[3]

أَرَى المَالَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ ... وَمَا تَنْقُصِ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ[4]

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِاليَدِ[5]

هذه أبيات يمتزج فيها الخوف بالتحدي، والفلسفة بالواقع، والتشبث بالموت.

إن طرفة هنا -كما يذكر الدكتور مصطفى ناصف- «يقف موقف التحدي من الشعور الديني السائد بين الناس، ولكن هذا التحدي يحمل طابع العجز .. طابع الإنسان المحدود»[6].

إنه يعارض أبناء مجتمعه الذين أفردوه إفراد البعير الأجرب حين رأوا مخالفته لقيمهم التي تتصل بالترابط الوثيق بينهم، وتعمد إلى تحمل المسؤولية القبلية، وإخضاع إرادة أفراد القبيلة لإرادة قادتها وسادتها، والمحافظة على ممتلكات أفراد القبيلة؛ لتكون ردءًا لها وقوة.

لكن هذا التحدي يصدر عن نظرة عميقة في الناس والحياة، إذ كان لطرفة رؤية خاصة في المصير، وكان إحساسه الدائم بالفناء يعبر عن يقينه بأن الحياة ذاتها ليست أكثر من مأساة شاملة؛ لأنها تفتقر إلى الخلود والبقاء، ولأن الموت لا يفرق بين نحام بخيل بماله وآخر غوي مفسد؛ ولذا فإن عليه أن يحوِّل كل لحظة من حياته إلى متعة، وأن يتسم إلى ذلك كله بالفروسية والإقدام على الموت، ما دام الخلود أمرًا مستحيلًا، والموت واقعًا لا يسلم منه أحد.

وبذلك فإن انتهاب اللذات في شعر طرفة وحياته يعبر عن إحساسه بالقلق والاغتراب؛

---

(١) النحام: البخيل.

(٢) جثوتين: الجثوة: التراب المجموع، الصفائح: الحجارة العراض، المنضد: وضع بعضه فوق بعض.

(٣) يعتام: يختار ويختص، عقيلة: خياره وأحسنه. الفاحش: سيء الخلق، المتشدد: الممسك.

(٤) كذا ورد في الديوان، ورواية ابن الأنباري «أرى العيش...»، وهي أليق بالسياق.

(٥) ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ص٤٥-٤٩)، الطِّوَل: الحبل. ثنياه: ما انثنى منه.

(٦) قراءة ثانية لشعرنا القديم، د.مصطفى ناصف (ص١٧٠).

لأنه يصدر عن إحساس عميق بتفاهة الحياة، وأنها لا تستحق هذه القيم السائدة في مجتمعه، كما أن فروسيته وإقدامه كانت محاولة لإثبات وجوده الفردي خارج نطاق المجتمع. إنه في الأبيات السابقة وفي كثير من مواطن شعره لا يفتخر أو لا يستطيع أن يفتخر بقومه الذين ظلموه وعادوه «عداوة ذي الأصحاب والمتوحد»، ومن هنا كان فخره بإقدامه وفروسيته فخرًا فرديًّا ينجد به الملهوف، ويرفع به عن المظلوم، كما أن فروسيته ترتبط بتفاهة الحياة لا بأهمية القبيلة، وضرورة الدفاع عن تماسكها وحوزتها.

لقد وجد طرفة من ذكائه وعبقريته، وما شاهده من مظالم اجتماعية، وما واجهه من أحداث مع قبيلته ما دفعه إلى اليأس والكآبة، وإلى التفكر في الموت، وغاية الحياة، فغدت مأساته أشمل وأعمق ، لقد شاء «الإفلات بإرادته وحريته من قبضة الضوابط القبلية فكانت النتيجة إحساسه بأنه في قبضة قدر أعتى وأقسى هو الفناء، وإزاء شعوره العميق بحتمية الفناء بدا أكثر ثقة بنهجه على الصعيد الاجتماعي، وأصبح أشد شغفًا باللذات»[(١)]، وهو بذلك إنما يختار معنى وجوده، ويصر على أن تكون هويته الاجتماعية والوجودية خاضعةً لإرادته وتفرده، ولو دفعت به إلى الاغتراب عن مجتمعه وقبيلته .

وهكذا فإن طرفة في تعبيره عن غربته النفسية وانعزاله عن مجتمعه تحلل من التقاليد القبلية في محاولة لإثبات حقه الفردي، واتجه إلى الجانب الحسي أو الوجودي، وحاول أن يتخذ منه ومن الفروسية مجالًا يتجاوز به محنته واغترابه.

(١) الحرية والضرورة في مأساة طرفة بن العبد، قباوة، فخر الدين وأحمد الخليل، مجلة بحوث جامعة حلب، حلب، العدد (١٦) لعام ١٩٦٩م.

الخاتمة

وبعد، فقد أظهرت الدراسة التحليلية لشعر طرفة مركزية مظاهر الاغتراب في شعره، وأنها تمثل نسقًا يجسد فيه الشاعر موقفه من مظاهر التسلط الاجتماعي والسياسي التي شهدها وعايشها، إذ كان مسكونًا بهواجس التمرد والانفصال، وكان يتخذ من الشعر وسيلة لبث همومه وانفعالاته في جو واضح من القلق الوجودي والإنساني.

وهذه الهواجس كانت عميقة ومتكررة في جوانبها الظاهرة عند مفارقته منازله التي ألفها، وفي جوانبها المضمرة بشعوره بالانفصال والتمرد تجاه قيم مجتمعه وزمانهم.

لقد حاول طرفة أن يصنع لنفسه مجتمعًا بديلًا من ناقته التي جال بها الفلوات، ومن آرائه التي صنع بها قيمًا معارضة لقيم مجتمعه وأهل زمانه؛ لتمثل إحلالًا استبداليًّا يصبح به الاغتراب وطنًا جديدًا للشاعر بما فيه من حركة زمانية ومكانية، وما يتضمنه من قيم ومشاعر إنسانية يحارب بها مشاعر الإحباط تجاه قبيلته ومجتمعه.

أهم التوصيات:

يوصي البحث بالتوسع في دراسة مظاهر الاغتراب وتجلياته لدى الشعراء الجاهليين الذي ظهرت عندهم هذه التجليات، وبالتوسع في دراسة شعر طرفة بن العبد من الوجهتين النفسية والاجتماعية، كما يوصي بدراسة أثر هذه التجليات على الجانب الفني في شعر طرفة، وبخاصة ما يتصل بتفوقه في بعض المعاني دون بعضها الآخر، وبظهور شبكة من الصور التي تمثل بمجموعها تجليًا لمشاعر دفينة لصيقة بالاغتراب في شعر طرفة، حيث لحظ الباحث أن الاغتراب كان له أثر واضح في الجانب الفني في الاختيارات الفنية والجمالية لطرفة وفي طبيعة صوره التي استطاع أن يتميز بها على أقرانه، ولم يتطرق له البحث؛ لأنه مخصوص بالجوانب الموضوعية دون الفنية.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر والمراجع:

١- **الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي أصوله وقضاياه**، أبو الرضا، د.سعد، د.ط، الرياض: مكتبة دار المعارف، د.ت.

٢- **الأغاني**، الأصفهاني، أبو الفرج، تحقيق عبد الستار أحمد فرج، د.ط، بيروت: دار الثقافة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

٣- **الاغتراب في الفلسفة المعاصرة**، مجاهد، مجاهد عبد المنعم، ط١، دمشق: سعد الدين للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٤- **الاغتراب في المعلقات**، خليف، مي يوسف، د.ط، د.م: دار الثقافة، د.ت.

٥- **الاغتراب**، شاخت، ريتشارد. ترجمة: كامل يوسف حسين، ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م.

٦- **الإنسان والاغتراب**، مجاهد، مجاهد عبد المنعم، ط١، دمشق: سعد الدين للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٧- **البيان والتبيين**، الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٥، د.م، مكتبة الخانجي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٨- **التنظيم الاجتماعي وظاهرة الاغتراب**، شتا، د. السيد علي، د.ط، الدمام: دار الإصلاح للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٩- **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، القرشي، أبو زيد، تحقيق: د.محمد علي الهاشمي، د.ط، د.م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٠- **الحيوان**، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١١- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، البغدادي، عبد القادر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د.ط، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١٢- **ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، وتليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة**، الشنتمري، الأعلم، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، البحرين: دائرة الثقافة والفنون، البحرين، ٢٠٠٠م.

١٣- **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، الأنباري، أبو بكر محمد الأنباري، تحقيق: الشربيني شريدة، د.ط، القاهرة: دار الحديث، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٤- **شرح المعلقات السبع**، الزوزني، الحسين بن أحمد، حققه وعلق على حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط، مصر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، د.ت.

١٥- **الشعر في ظلال المناذرة والغساسنة**، شرف الدين، د.عمر، د.ط، د.م: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م .

١٦- **الشعر والشعراء**، ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، د.ط، بيروت: دار الثقافة، د.ت.

١٧- **شعراء الحيرة في العصر الجاهلي**، الشطي، د. عبد الفتاح عبد المحسن، د.ط، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر، د.ت.

١٨- **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، خليف، د. يوسف، د.ط، د.م: مكتبة غريب، د.ت.

١٩- **طبقات فحول الشعراء**، الجمحي: محمد بن سلام، شرح وقراءة: محمود محمد شاكر، د.ط، جدة: دار المدني، د.ت.

٢٠- **طرفة بن العبد القلق الوجودي والشقاء**، شلق، د. علي، ط١، بيروت: دار المدى للطباعة والنشر، ١٩٨٥م.

٢١- **طرفة بن العبد حياته وشعره**، شامي، د. يحيى، د.ط، بيروت: دار الفكر العربي ، د.ت.

٢٢- **العقد الفريد**، ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، تحقيق: محمد سعيد العريان، د.ط، د.م: المكتبة التجارية الكبرى، د.ت.

٢٣- **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، القيرواني، الحسن بن رشيق، تحقيق: د. النبوي عبد الواحد شعلان، ط١، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٤- **الغلام القتيل طرفة بن العبد شاعر البحرين في العصر الجاهلي حياته وشعره**، أحمد، د.محمد عبد القادر أحمد، د.ط، البحرين: جامعة البحرين، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٥- **الفاخر**، الكوفي، أبوطالب المفضل بن سلمة، ط٢، القاهرة: دار الفرجاني، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٦- **قراءة ثانية لشعرنا القديم**، ناصف، د.مصطفى، ط٢، بيروت: دار الأندلس، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٢٧- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، ابن أحمد، الشيخ عبد الرحيم، حققه وعلق على حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط، مصر: مطبعة السعادة ، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م.

٢٨- **معجم الشعراء**، المرزباني، الإمام أبو عبد الله، ط١، بيروت: مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، د.ت.

٢٩- **المؤتلف والمختلف**، الآمدي، أبو القاسم، تصحيح وتعليق: الدكتور ف. كرنكو، ط١، بيروت: مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، د.ت.

٣٠- **النقد الأدبي الحديث**، هلال، د. محمد غنيمي، د.ط، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣م.

ثانيًا: الدوريات:

٣١- «**الحرية والضرورة في مأساة طرفة بن العبد**»، قباوة، فخر الدين وأحمد الخليل، مجلة بحوث جامعة حلب، حلب، العدد (١٦)، ١٩٦٩م.

٣٢- «**فكرة الاغتراب في الفكر العربي**»، خليفات، سحبان، مجلة أفكار، الأردن، العدد (٢٤)، أيلول ١٩٧٤م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	٣٦٩
المقدمة	٣٧٠
التمهيد	٣٧٢
أولًا: مدخل	٣٧٢
ثانيًا: مسببات الاغتراب في شعر طرفة	٣٧٤
تجليات الاغتراب في شعر طرفة	٣٧٩
أولًا: الاغتراب المكاني	٣٧٩
ثانيًا: الاغتراب الزماني	٣٨٥
ثالثًا: الاغتراب الاجتماعي والنفسي	٣٩٠
الخاتمة	٣٩٨
فهرس المصادر والمراجع	٣٩٩
فهرس الموضوعات	٤٠٢